المحاضرة التاسعة: نظريّة المحاكاة

1. تمهيد:

تُعتبر نظرية المحاكاة أقدم النظريات الأدبية على الإطلاق، حيث تعود جذورها إلى أقطاب المثاليّة اليونانيّة الثلاثة (**سقراط، أفلاطون، أرسطو**)، فهي أوّل نظرية في الأدب يعود ظهورها إلى ما قبل التاريخ مع **أفلاطون(Platon)**[1] و**أرسطو(Aristote)**[2]، مع العلم أنّه توجد بعض الآراء حول طبيعة الأدب ووظيفته عند من سبقهما أمثال **هوميروس(Homére)**[3].

كان هؤلاء خلال سعيهم الدؤوب لتثبيت الطبقيّة الحادة بين أفراد المجتمع اليوناني يقدمون الفروقات بين طبقات المجتمع وتبريراتها، فكانت كلّ فلسفتهم تُثبّت هذه الطبقيّة وتُؤكد أنّ الحكام أفضل من العبيد بحكم الطبيعة[4]، هذه الرغبة في التفرقة بين أفراد المجتمع جعلتهم يفصلون الوجود إلى طبقات أيضاً. إنّ رغبتهم في تثبيت هذه الطبقية جعلتهم يسعون إلى وضع قواعد وقوانين أزليّة وثابتة بطابع مثالي يجعل الطبقات الدنيا من المجتمع تُسلّم بما هو موجود.

يرى **أفلاطون** أنّ العبد شهوانيّ بطبعه يُسيطر جسدُه على روحِه، والحرّ عقلي بطبعه تُسيطر روحُه على جسدِه، من هذا المُنطلق يجب أن يتبع الجسدُ الروحَ ومن حقّ الحرّ أن يمتلكَ العبدَ. هذا التقسيم الطبقي هو الذي أدى إلى تصنيف آخر على مستوى البناء الثقافي، حيث من واجباتِ العبدِ العملُ الجسديُ، بينما من واجباتِ الحرّ النشاطُ الفكريُ والعلم والفلسفة[5].

ارتبط الفكر اليوناني في معظم حالاته بالبحث عن المعرفة، وحتى الشعراء في بدايات تشكّل هذا الفكر كانوا يُعتبرون حُكماءَ أمثال: **أورفيوس، هيزيود، هوميروس**، لكن بعد نضج الفكر

---

[1]. أفلاطون، فيلسوف يوناني ولد سنة 427 (ق.م) وتوفي سنة 347 (ق.م) اسمه الحقيقي أرسطوقليس، من كتبه الجمهورية، المحاورات.

[2]. أرسطو أو أرسطوطاليس، فيلسوف يوناني، ولد سنة 384 قبل الميلاد وتوفي سنة 322 قبل الميلاد، التحق بأكاديمية أفلاطون وتتلمذ على يديه مدة عشرين سنة، من مؤلفاته: الخطابة، فن الشعر.

[3]. هوميرس شاعر ملحمي يوناني، يُنسب إليه نظم الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة.

[4]. ينظر عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب، ط03، دار العودة، بيروت، 1983، ص171/168.

[5]. ينظر: المرجع نفسه، ص171.

الفلسفي اليوناني أنكر الفلاسفة أن يمتلكَ الشاعرُ الحقيقةَ، وربطوا هذه الأخيرة بالفلسفة والفلاسفة[1].

2. أسسها الفلسفيّة:

تقوم نظرية المحاكاة على الفلسفة اليونانيّة الطبقيّة؛ حيث كانت جل الأعمال التنظيرية لروادها تسعى إلى تبرير الطبقيّة في المجتمع والمحافظة على السائد (تقديم شروحات للطلبة).

3. المحاكاة عند أفلاطون:

اعتمد **أفلاطون** في فلسفته على التأمّل والتجريد والاستنتاج المغرق في الميتافيزيقا، وقدّم فلسفة عامة تشمل مجالات عديدة ومختلفة وخلال ذلك عرض ملاحظاته عن الفنّ وعلاقته بالسلوك والمعرفة.

يرى **أفلاطون أن** الفنون كلّها قائمة على التقليد (محاكاة للمحاكاة)، ويرى أنّ العالم مقسّم إلى ثلاثة أقسام:

	العالم	المجتمع	النفس
	المثل	الحكام	الحكيمة
	المحسوس	الجنود	الغضوبة
	الفنّ	العبيد	الشهوانية

يعتبر عالم المثل عالم الكمال الأسمى، وعالم المحسوسات تشويه له، أمّا عالم الفن فهو تشويه من الدرجة الثانية (تشويه للتشويه). ما جعله يرفض الفن ويبعد الفنانين والشعراء عن جمهوريته، كون عمل الشاعر محاكاة للمحاكاة[2]، و"الجمال المثال له وجود مستقلٌ عن كلّ الأشياء

[1]. ينظر: عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص172.

[2]. ينظر: شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، مقدمة في نظرية الأدب، ط03، دار العودة، بيروت، 1983، ص19/18.

المرئيّة التي نصفها بالجمال، ووجوده المستقلّ عن المحسوس هو الوجود الحقيقي الذي يتسم بالتمام والثبات"[1].

ويرى أنّ مصدر الشعر هو الإلهام فربّة الشعر تُلهم الشاعر وهذا الأخير لا قدرة له بدون ذلك الإلهام، والشعراء يُعبّرون عن أشياء لا علم لهم بها ويصفون ما لم يمارسوه، إلى جانب ذلك فالشاعر لا يستخدم العقل إنّما المشاعر ويؤجج العواطف، ما يجعله بعيداً عن الحقيقة.

لا يمتلك الفنّ – حسب **أفلاطون**- الحقيقة ولا القدرة على تقديمها، فجلّ ما يُقدمه محاكاة مرآوية للعالم المحسوس الذي هو صورة مشوّهة عن عالم المثل؛ من هذا المنطلق أخرج **أفلاطون** الشعراء من جمهوريته معتبراً أنّ ما يُقدمونه زيفٌ.

اهتم **أفلاطون** بوظيفة الأدب وتأثيره في الأخلاق فكان يرى أن الوظيفة الحقيقية للأدب هي المنفعة وليست المتعة التي كان الشعراء يسعون إلى تحقيقها، لكنه في بعض الأحيان يعترف بقيمة الشعر وأهميته الاجتماعية، ما جعله يقبل بعض الشعر بشرط أن تعبر هذه القصائد عن مواضيع ذات قيمة أخلاقيّة ولا تتعارض مع ما هو خيّر ولا يُنشدها الشاعر حتى يعرضها على القضاة. رغم كلّ هذا التحامل على الشعراء بيد أنّه يرى بإمكانيّة أن يؤدي الشعراء دورا إيجابياً إذا خُصص شعرهم للجانب الأخلاقيّ وسُخّر لأغراض تروبويّة[2].

نلاحظ أنّ **أفلاطون** رفض فكرة الفن للفن، ونادى بالفن الأخلاقي الهادف، وفضّل **أفلاطون** الملحمة التي تثير عاطفة الإعجاب بأبطالها على التراجيديا التي تثير عاطفة الشفقة والخوف وبالتالي الضعف[3].

4. المحاكاة عند أرسطو:

اعتمد **أرسطو** على المنهج الاستقرائي القائم على الفحص والملاحظة، ويرى كثير من الباحثين أنّه صاحب أوّل اجتهاد منهجي في نظرية الأدب، حيث كان عمله قائماً على ملاحظته للتراث الفنّي

[1]. عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص173.

[2]. ينظر عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص175.

[3]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص29.

والأدبي واستقرائه للأعمال الفنيّة اليونانيّة، وكان كتابه (فنّ الشعر) خلاصة هذه الملاحظات والعمل الاستقرائي، وقدّم فيه أسساً نظريّة لطبيعة الفنّ والغاية منه[1].

يرى **أرسطو** أنّ الشعر نوع من المحاكاة، ورغم أنّه وظف المصطلح نفسه الذي وظفه **أفلاطون** إلاّ أنّه حمّله مفهوماً مختلفاً، فبالنسبة **لأرسطو** محاكاة الأديب لا تكون نقلاً سلبياً إنّما يتصرّف الأديب فيها، فهو لا يحاكي ما هو كائن إنّما ما يمكن أن يكون أو يجب أن يكون[2]، فالفنان (الشاعر) إذا عبّر عن شيء ما فهو يصفه بطريقة أجمل مما هو موجود في الطبيعة، فهذه الأخير ناقصة ودور الفن أن يتمم ذلك النقص.

اتّفق **أرسطو** مع أستاذه في اعتبار الفنّ محاكاة لكنّه رفض أن تكون هذه المحاكاة مرآويّة أو تشويها للواقع، فالفنّ -حسبه- لا يحاكي ما هو كائن، بل يحاكي ما يجب أن يكون ويصوّر العالم بصورة أبهى ممّا هو عليه في الواقع، فالطبيعة تتميز بالنقص والفنّ يُكَمّل هذا النقص بما يضيفه من إبداع فيزيدها رونقاً وجمالاً[3].

لا يرتبط موضوع المحاكاة عند **أرسطو** بمظاهر الطبيعة فقط إنّما يشمل الانطباعات الذهنية وأفعال الناس وعواطفهم[4]، ويكون فعل المحاكاة بالتركيز على طباع الشخصيات وأفعالها وليس بالتركيز على الشخصيات ذاتها، والفنّ يُحاكي ما هو مُهمٌ في الأفعال الإنسانية والانفعالات البشريّة[5].

فضّل **أرسطو** الفنّ على التاريخ، حيث يرى أنّ هذا الأخير محكوم بحيزي الزمان والمكان، ومحدود بما حدث، بينما الفنّ فله القدرة على عرض ما يجب أن يكون؛ كما أنّه يعرض المعاني الكليّة والقضايا العامّة، ما يجعله أكثر فلسفة من التاريخ[6].

---

[1]. ينظر عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص176.

[2]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص33.

[3]. ينظر عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص177.

[4]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص35.

[5]. ينظر عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص177.

[6]. ينظر المرجع نفسه، ص177.

ربط **أرسطو** نشأة الفنّ والشعر بصفة خاصة بغريزة المحاكاة لدى الإنسان، فـ"غريزة المحاكاة التي تظهر مع الإنسان منذ وطفولته بها يُحصّل معارفه الأوليّة، وغريزة حبّ النغم والإيقاع"[1]، ويحاكي الشعر الحقيقة المثالية المجردة ما يجعله أقرب إلى روح الفلسفة، كما أنّه لا يشوّه الحقيقة ولا يبتعد عنها، وينشأ الشعر حسب **أرسطو** عن غريزة المحاكاة وحب الوزن فالإنسان ميّال بطبعه إلى الإيقاع، ما يجعل منشأ الشعر الطبيعة الإنسانية.

بعد استقراء **أرسطو** وملاحظته للأعمال الفنيّة اليونانية وجد أنّها تحقق المتعة والفائدة. ويرى أرسطو أنّ التراجيديا تنمي عاطفتي الخوف والشفقة، لكنها تجعل المشاهدين أكثر قوّة من خلال عملية التطهير؛ فالتراجيديا تسمح بتصريف العواطف المكبوتة من ثمّ تجعل المشاهد أكثر سروراً[2].

رفض **أرسطو** رؤية أستاذه للعالم وتقسيمه الوهمي الطبقي، فكانت نظرته للأشياء تتسم بالواقعيّة، فالطبيعة بالنسبة له ليست صورة باهتة عن عالم المثل الوهمي، فهي -أي الطبيعة- العالم الحقيقي والفعلي الأساس، والفن يُحاكي هذه الطبيعة ليُكمّل النقص فيها ويُساعد على فهمها من خلال ما يُضفي عليها الفنان من تجاربه الوجدانيّة والانفعاليّة[3].

رغم اختلاف أرسطو مع أستاذه في تجديد وظيفة الأدب، بيد أنّهما يتفقان في جعل هذه الوظيفة ثابتة ومطلقة تتمشى مع رغبتهما في تثبيت الوضع القائم من طبقيّة وعلاقات اجتماعيّة[4].

---

[1]. عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص 177.

[2]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص42/41.

[3]. ينظر عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ص 178.

[4]. ينظر المرجع نفسه، ص182.